

النشاط السياسي والعلمي لابن خلدون في شمال إفريقيا

د. فيروز عثمان صالح*

مقدمة

عبد الرحمن بن خلدون (732 - 808 هـ) هو قمة شامخة من قمم الفكر العربي الإفريقي الإسلامي، لم تثر آراؤه ونشاطاته تعليقات مفكري القرن الرابع عشر الميلادي فحسب، بل ما زالت حتى اليوم محل بحث مستفيض من جانب العلماء العرب المعاصرين وكذلك المستشرقين .

وابن خلدون هو أول مفكر مسلم يخصص لنفسه ترجمة ذاتية مستفيضة تشغل كتاباً بأسره، وهو ما أسماه بـ (تعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً).
وحياة ابن خلدون مليئة بالحوادث والتقلبات والمغامرات وهي انعكاس للحياة العامة بدول المغرب في منتصف القرن الثامن الهجري .

فقد انخرط ابن خلدون في العمل السياسي منذ صغره يدفعه إلى ذلك طموحه وذكاؤه إلا أن ذلك لم يصرفه عن العلم . وقد استقى ابن خلدون الكثير من نظرياته من خبراته العملية ومشاهداته ولا سيما تلك التي تتعلق بالعصبية، والبداءة والحضارة، وقيام الدولة وزوالها، والظواهر الاجتماعية .

وهذه الدراسة محاولة للتدليل والبرهنة على أن ابن خلدون كان في كل مراحل حياته في شمال إفريقيا مشغولاً بالعلم والسياسة معاً، فالتكاليف السياسية والوظائف السلطانية التي تقلدها في مختلف مراحل حياته لم تصرفه عن الاستزادة من العلم، والتدريس

* جامعة الخرطوم - كلية الآداب - قسم الدراسات الإسلامية

والتأليف ، بل لـ كثيراً من نظرياته وآرائه التي تضمنتها (مقدمته الشهيرة) هي ترجمة وصدى لخبراته العملية والسياسية .

شخصية ابن خلدون من خلال بينته الخاصة والعامة

ابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م) هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين ابن خلدون ، اسمه عبد الرحمن وكنيته أبو زيد ، ولقبه ولي الدين وشهرته ابن خلدون⁽¹⁾. ويبدأ ابن خلدون في كتابه (التعريف بابن خلدون) بالتعريف بنفسه ونسبه قائلاً إنه (عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) ابن عثمان)⁽²⁾.

وأسرة بلن خلدون ترجع إلى أصل يمانى حضر مي عريق اشتهر منهم في صدر الإسلام وائل بن حجر أحد صحابة النبي عليه الصلاة والسلام . يقول ابن خلدون (ونسبنا في حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقيال العرب معروف وله صحبة ، قال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة ، هو وائل بن حجر بن معد بن مسروق بن وائل بن النعمان ... وذكره أبو عمر ابن عبد البر في حرف الواو من الاستيعاب وأنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه وأجلسه عليه ، وقال اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد وولده إلى يوم القيامة)⁽³⁾.

لقد دخل جدّه خالد بن عثمان المعروف بابن خلدون إلى الأندلس وأنشأ بيتاً في قرمونة ثم شيبيلية في زمان الأمير عبد الله بن محمد الأموي ، وثار هو وأخوه ركيب⁽⁴⁾ على ذلك الأمير ، ثم تربعا عرش أشبيلية أعواماً . يقول ابن خلدون موضعاً ذلك (قال ابن حزم وينكر بنو خلدون الأشبليون من ولده جدهم الداخل من المشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن الخطاب بن كريت ... بن وائل بن حجر ... ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت ونشأ بين بنيه بها ، ثم انتقل إلى شيبيلية وكانوا في جند اليمن ، وكان لركيب من عقبه وأخيه خالد الثورة المعروفة بأشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني ، ثار على أبي عبدة وملكها من يده أعواماً ، ثم ثار على عبد الله بن حجاج بملاء الأمير عبد الله وقتله ، وذلك في أواخر المائة الثالثة)⁽⁵⁾ ويشير ابن خلدون إلى ما كان لآل خلدون من مجد ورياسة وسؤدد في

أشبيلية حتى زمان الطوائف⁽⁶⁾ قائلاً: قال ابن حيان وبيت بني خلدون إلى الآن في أشبيلية نهاية في النباهة ، ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية⁽⁷⁾ وبيضيف قائلاً (ولم تزل بيت بني خلدون بأشبيلية كما ذكره ابن حيان وابن حزم وغيرهما سائر بني أمية إلى زمان الطوائف ، وانجحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة)⁽⁸⁾.

وبعد أن زالت دولة الطوائف واستولى المرابطون على الأندلس لم يكن لبني خلدون شأن كبير في الدولة ، وظلوا على هذه الحال طوال حكم المرابطون⁽⁹⁾ . فلما قام الموحدون⁽¹⁰⁾ بالمغرب، وانتزعوا الأندلس من المرابطين ، وأقطعوا زعماءهم وأنصارهم الولايات والمدن ، أتيح لبني خلدون الاتصال بالولاة الجدد واستعادوا بعض ما كان لهم من العزة والرياسة والجاه⁽¹¹⁾.

بنو خلدون في إفريقيا

ولما اضمحلت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس ، وأخذت ثغورها وقواعدها تسقط تباعاً في يد الأندلس ، ترك بنو حفص⁽¹²⁾ أشبيلية تحت رحمة النصارى ونزحوا إلى أفريقية⁽¹³⁾ سنة 620هـ حيث دعوا لأنفسهم ضد ولايتهم من الموحدين ، وانتهى الأمر بنجاح دعوتهم واستيلائهم على قسم كبير من البلاد . وتبعهم بنو خلدون ، فأكرم الحفصيون وفادتهم ، وعطفوا عليهم ، وتولى الجد الثاني لابن خلدون (أبو بكر محمد) شؤون الدولة بتونس ، كما ولي جده الأول (محمد بن أبي بكر بن محمد) شؤون الحجابة لحاكم بجاية⁽¹⁴⁾ من الحفصيين . وبقي في بلاط بجاية يتقلب في مراتب الدولة في ظل بني حفص . ولما زالت دولة بني حفص وغلب على تونس زعيم الموحدين أبو يحيى اللحياني سنة 711هـ قربه وولاه حجابته حيناً ، ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقي مع ذلك على مكانته ونفوذه في الدولة حتى توفي سنة 737هـ⁽¹⁵⁾

أما ولده محمد وهو والد ابن خلدون ، فقد زهد في الحياة السياسية ، وأثر حياة الدرس ، وبرز في الفقه وعلوم اللغة ونظم الشعر . وتوفي إبان الطاعون سنة 749هـ وله من الولد عدة لم يظهر منهم إلى جانب عبد الرحمن بن خلدون سوى يحيى الذي تولى الوزارة فيما بعد⁽¹⁶⁾ .

ولم يكن اتجاه والد ابن خلدون إلى العلم بدعاً في هذه الأسرة ، فقد نبغ من قبله في الأندلس والمغرب عدد كبير من أفرادها في كثير من العلوم. ومن هؤلاء عمر بن خلدون – الذي توفي قبل مولد ابن خلدون بنحو ثلاثة قرون – وكانت له قدم راسخة في العلوم الرياضية والفلك⁽¹⁷⁾

نستطيع إذن أن نقول إن بيئة ابن خلدون الخاصة والعامة قد اتجهت به نحو العلم والسياسة معاً ، فقد كان العلم كما كانت السياسة من السمات التي يعرف بها بنو خلدون ، منذ أن كانوا في الأندلس، وكان الاتجاه إليه ميراثاً من موارث هذه الأسرة .

ابن خلدون بين المناصب السياسية والعلمية في شمال إفريقيا

انخرط آل خلدون في الحياة العامة والعمل السياسي منذ أيامهم في أشبيلية ، وقد نشأ ابن خلدون في كنف آل حفص ، وهذه الصلة أتاحت له أن يلعب دوراً سياسياً في سن مبكرة ، فقد تقلد مناصب سياسية ووزارية وسلطانية ودبلوماسية على طول المغرب وعرضها ، وإن كانت رعاية آل حفص له قد اتجهت به نحو السياسة فقد كانت في ذات الوقت سبباً في اتجاهه نحو العلم ، إذ إن آل حفص قد عرف عنهم اهتمامهم بالعلم والعلماء . والأسرة الخلدونية نفسها قد عرف عنها اهتمامها بالعلم وهي أسرة علمية من الطراز الأول، ولقد احتفظت الأسرة الخلدونية بتراتها العلمية من لدن وائل بن حجر الذي كان ينشر القرآن والهدى الإسلامي في اليمن وحتى خالد بن عثمان⁽¹⁸⁾ .

إذن فإن بيئة ابن خلدون الخاصة والعامة قد اتجهت به نحو العلم والسياسة معاً ، فأما بالنسبة للجانب العلمي فقد بسط لنا ابن خلدون الحديث عن العلوم التي تلقاها وعن شيوخه، كذلك حدثنا ابن خلدون عن عطائه حينما جلس للتدريس في معظم بلدان شمال إفريقيا التي حل بها وكانت كبرى المساجد والمدارس مقاراً لحلقات دروسه ، مثل القصبة في مدينة بجاية ، وجامع القرويين في فاس ، والجامع الأزهر في القاهرة والمدرسة القمحية بجوار جامع عمر بن العاص في الفسطاط ، والمدرسة الظاهرية البرقوقية في حي بين القصرين في القاهرة⁽¹⁹⁾ .

وينبه الشكعة إلى أن التدريس في تلك الأماكن شمال إفريقيا لم يكن متاحاً إلا لصفوة العلماء ، وأنه قد تتلمذ على يدي ابن خلدون صفوة التلاميذ الذين صاروا مشاهير فيما بعد

إذ يقولن (التدريس في هذه الأماكن لم يكن ميسوراً لجمهرة العلماء وإنما كان مقصوراً على خاصتهم والصفوة من بين صفوفهم ، وكان لا يتم إلا بأمر من السلطان ، وقد جلس إلى ابن خلدون في مصر بعض التلاميذ الذين صاروا من مشاهير علماء الإسلام فيما بعد ، مثل شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني ومؤرخ الإسلام تقي الدين المقريزي ، وقد وصفا حلقات دروسه وصفاً دقيقاً (20) .

وقد بسط لنا ابن خلدون الحديث عن شيوخه والعلوم التي تلقاها في (التعريف بابن خلدون) قد كان أبوه معلمه الأول ، وكانت تونس حينئذ مركز العلماء والأدباء في بلاد المغرب ، ومنزل رهط من علماء الأندلس الذين شنتهم الحوادث . فكان من هؤلاء وأولئك أساتذة ابن خلدون ومعلموه مع والده ومن بعده، قرأ عليهم القرآن وجوده بالقراءات السبع وبرواية يعقوب ، ودرس عليهم العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه على المذهب المالكي السائد في المغرب ، ودرس عليهم العلوم اللسانية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب مع عناية خاصة بالشعر ، ثم درس الفلسفة والمنطق فيما بعد ، وحظي في جميع دراساته بإعجاب أساتذته ونال إجازاتهم (21) .

ومن أبرز شيوخه الشيخ ابن عبد الله محمد بن نزال الأنصاري ، الذي قرأ القرآن الكريم عليه ، ودرس عليه كتباً جمة مثل كتاب التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الخطيب في الفقه ، وفي خلال ذلك تعلم صناعة العربية على والده وغيره من الشيوخ الذين برعوا في النحو والأدب (22) .

ودرس الحديث على إمام المحدثين بتونس شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر ، وأخذ الفقه عن جماعة منهم أبو عبد الله محمد الحياي وأبو القاسم بن محمد القصير (23) ويبدو أن اثنين من شيوخه كان لهما أكبر أثر في ثقافته الشرعية واللغوية والحكمية أحدهما محمد بن عبد المهيم الحضرمي إمام المحدثين والنحاة ، وعنه أخذ الفقه والحديث والسيرة وعلوم اللغة، والآخر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي شيخ العلوم العقلية ، وعنه أخذ الأصول والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية (24) .

ولعظم مكانتها في نفس ابن خلدون يعني في كتابه (التعريف) بالترجمة لكل منها ترجمة منفصلة (25) .

ظل ابن خلدون منذ نشأته حريصاً مكباً على تحصيل العلم إلى أن هلك بالطاعون⁽²⁶⁾ الأعيان والمشايخ وابواه ، فلزم مجلس شيوخه الأبلئ ثلاث سنين وفي ذلك يقول ابن خلدون ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، منتقلاً بين دروس العلم وحلقاته إلى أن كان الطاعون الجارف وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة ، وهلك أبواي رحمهما الله . ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الأبلئ ، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شدوت بعض الشيء واستدعاه السلطان أبو عنان ، فارتحل إليه⁽²⁷⁾ .

انقلاب أحوال شمال إفريقيا في أواخر المائة الثامنة واتجاه ابن خلدون لكتابة التاريخ

كان ذلك الطاعون الجارف علامة بارزة ونقطة تحول في حياة ابن خلدون ، فقد تولد لدى ابن خلدون شعور بأن ثمة انقلاباً طرأ على الكون ، مما دفعه إلى التفكير في كتابة التاريخ ، وكذلك تنامي هذا الإحساس بعد دخول البدو العرب إلى بلاد المغرب منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)⁽²⁸⁾ وكان هذا الحدث الأخير كما عبر "بوتول" بمثابة اختلال في التوازن الاجتماعي نتيجة لابتلاع بربر زناتة من قبل عرب بني هلال⁽²⁹⁾ وقد بين ابن خلدون كيف أن الحدثين قد دفعا إلى التفكير في كتابة التاريخ قائلاً " وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهده وتبدلت الجملة ، واعتاض من جبال البربر اهله على القدم بما طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسرهم وغلبوهم ، وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم ، هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيىف الأمم ، وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها ... فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل ، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن ، وكأني بالمشرق قد نزل به ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه ، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانتقباض فبادر بالإجابة ... واذ تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث ، فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها⁽³⁰⁾

اذن فالطاعون الجارف كان نقطة تحول في حياة ابن خلدون، وكان من الأسباب التي حملته على التفكير في كتابة التاريخ بعد أن تزود بمختلف العلوم، على أن بعض الباحثين يرون أن ذلك الحدث قد دفع بابن خلدون إلى معتك السياسة، وكان سبباً في هجره للعلم والاستزادة منه. فنجد على سبيل المثال - زينب الخضيرى تقول "ولكنه ما كاد يبلغ العشرين من عمره حتى انقطع عن الدراسة ورمى بنفسه في خضم الحياة السياسية المضطربة.... أما لماذا ترك الدراسة فهذا ما يجيب عنه هو في التعريف وفي المقدمة، إذ يقول إن الطاعون انتشر في البلاد سنة 749هـ، فأتى على والديه ومعظم أساتذته"⁽³¹⁾ وكذلك على عبد الواحد وافى إذ يقول "ولما كانت هذه الأحداث - الطاعون وهلاك العلماء وهجرة من بقى منهم - قد جعلت الوسائل غير ميسرة له بتونس لمتابعة دراسته والتفرغ للعلم... فقد تغير مجرى حياته، وأخذ يتطلع إلى تولى الوظائف العامة"⁽³²⁾ ذلك حديث تنقصه الدقة، فابن خلدون يخبرنا في التعريف - كما أوضحنا - أنه قد لزم شيخه الأبلى بعد الطاعون لمدة ثلاث سنين، وإن كان ابن خلدون قد اتجه إلى ممارسة العمل - كتابه العلامة عن السلطان ابى اسحاق - بعد أن ارتحل شيخه الأبلى إلى السلطان أبى العنان، فهذا لا يعنى أنه قد قطع كل صلة له بالدراسة، فابن خلدون لم يشغله عن اكتساب العلم تولى المراكز العامة، بل كان مشغولاً إلى النظر في شئون الحياة وأخذ العبر منها، ولم يكن حدث مثل الطاعون يمر على ابن خلدون دون أن يقف عنده متأملاً ومعتبراً.

إذن فالممارسة العملية قد وسعت من دائرة مشاهداته وكانت بمثابة ثروة علمية تضمنها مشروعه العلمي الضخم (المقدمة والتاريخ) بكل ما فيها من عبر - لذلك فمن الصعب أن ندعي أن ابن خلدون قد انصرف عن العلم والاستزادة منه حينما اتجه إلى العمل السياسي، ربما قد يطغى جانب على الآخر في مرحلة من المراحل، ولكنهما أى العلم والسياسة - يبقيان دائماً متلازمين طيلة حياته، وكما يقول بوتول فان ابن خلدون "قد أبدى في أثناء سلكه - أي عمله - من الطموح الجامح، ومن الذوق الفائق في الدرس والتأمل في الوقت نفسه، ما أتاح له في فترة قصيرة، وفي وسط حياة سياسية مضطربة خاصة، أن ينتج أثراً ضخماً يعرض منه، أي مقدمته، جميع آيات العبقرية"⁽³³⁾

الأحوال السياسية في إفريقيا الشمالية في منتصف القرن

الثامن الهجري وأثرها على نشاط ابن خلدون العلمي والسياسي

قبل أن نتتبع ابن خلدون في أدوار حياته العامة والعملية سأبسط القول في أحوال أفريقية الشمالية وتقلباتها السياسية , وذلك لأن تجربته الشخصية مرتبطة بتلك الأحوال.

كانت إفريقيا الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجري مسرحاً للثورات السياسية العنيفة وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على انقاضها دويلات وأمارة عديدة من أشهرها ثلاث دويلات : إحداهما دولة بني حفص في المغرب الأدنى -تونس وما إليها - وعاصمتها تونس . وثانيتهما دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان, وثالثتهما دولة بني مرين في المغرب الأقصى وقاعدتها فاس . ولم يقف الانقسام والتفتت الى هذا الحد بل قامت إمارات صغيرة في ظل هذه الدولة وخارجها على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء⁽³⁴⁾ .

وكانت دولة بني مرين أعظم الدول الجديدة وأقواها , وقد اتسعت رقعتها اتساعاً كبيراً وخاصة في عهد السلطان أبي الحسن , الذي تولى عرش فاس والمغرب الأقصى سنة 731هـ, ففي سنة 733هـ غزا جبل طارق وافتتحها من يد النصارى , ثم زحف شرقاً فاستولى على سائر المغرب الأوسط وتلمسان من يد بني عبد الواد , واستولى على تونس سنة 748هـ وانتزعاها من يد بني حفص أصهاره وأصدقائه. ولبث في تونس عامين يوطد أركانها , ثم غادرها سنة 750هـ⁽³⁵⁾ .

ولكن لم يكد السلطان أبو الحسن يغادر تونس , حتى زحف عليها الفضل بن أبي يحيى الحفصي , واستولى عليها , واستعاد ملك أسرته , ولكنه لم يلبث طويلاً حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله بن تافراكين , وانتزع منه العرش , وأقام فيه أخاه الطفل أبا إسحاق بن أبي يحيى في كفالته وتحت استبداده , وذلك في أوائل سنة 751هـ⁽³⁶⁾

هكذا كانت أحوال الدول المغربية في منتصف القرن الثامن الهجري, كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لا تتقطع , والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر , وكانت عروش المغرب وقصوره مهبط الأطماع والمنافسات , ومكمن والفساد والمكائد . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة تسطع في فترات السلم القليلة , وتجذب إليها رجال

التفكير والأدب . وكان بنو حفص , وبنو مرين بالأخص ملاذ العلماء والأدباء , يلتفون حولهم ويستظلون برعايتهم , ويقولون لديهم مناصب النفوذ والثقة . وكانت غرناطة لا تزال مهد حركة فكرية زاهرة , ولكن الأندلس كانت تضيق بعلمائها وأدبائها , خصوصاً بعد ان قصت مملكة قشتالة النصرانية أطرافها, ولذا نرى كثيراً من علمائها وأدبائها ينزحون الى المغرب باعتباره أوسع قافلاً وأوفى طمأنينة⁽³⁷⁾ .

في ظل هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته العملية حيث اتجه للعمل السياسي والوظائف السلطانية حينما استدعاه أبو محمد بن تافراكين صاحب الدولة الفعلي في تونس في اواخر سنة 751هـ , لكتابة العلامة عن السلطان أبي إسحاق , وهي وضع "الحمد لله والشكر لله" بالقلم الغليظ مابين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم وكانت هذه أول وظيفة تولاهها من وظائف الدولة⁽³⁸⁾ .

وبعد هزيمة تافراكين سنة 753هـ على يد أحد الأمراء الحفصيين , فر ابن خلدون مطوّفاً في البلاد, وانتهى به المقام في بسكرة⁽³⁹⁾ حيث تزوج عام 754هـ⁽⁴⁰⁾ وسعى ابن خلدون للقاء السلطان ابي عنان في تلمسان فنال من كرامته وإحسانه ما لم يحتسبه , وظل ابن خلدون يتقرب منه , ويقدم ولاءه له ومازال السلطان يدينه منه حتى عينه ضمن كتابه وموقفه عليه . ويؤكد ابن خلدون أن ذلك لم يكن منتهى طموحه وكان على كره منه قائلاً (إذا كنت لم أعهد مثله لسلفي)⁽⁴¹⁾

وبالرغم من انخراط ابن خلدون في الحياة العامة إلا أنه قد عكف في فاس على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب , وكذلك العلماء الوافدين إليها من الأندلس . فارتقت بذلك معارفه واتسع اطلاعه , وبذلك فقد استطاع في فاس أن يجمع بين العلم والاستزادة منه والنشاط العملي والسياسي . فبعد أن بين ابن خلدون الوظائف التي تقلدها في بلاط فاس نبّهه الى نشاطه العلمي قائلاً "وعكفت على النظر والقراءة , ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس , الوافدين في عرض السفارة , وحصلت من الإفادة منهم على البغية"⁽⁴²⁾ . ثم أخذ ابن خلدون بعد ذلك في تعداد شيوخه والترجمة لهم⁽⁴³⁾ كما فعل حينما كان يصف مراحل تلمذته الأولى .

كان طموح ابن خلدون وذكاؤه ، وقوة عزمه ووفرة أطماعه، واعتزازه بتراث أسرته، تحفزه دائماً إلى طلب المزيد من الجاه والنفوذ . وكانت أحوال المغرب المضطربة تفسح المجال لنهوض وتقدم الطامعين ذوي الكفاية والعزم. لذلك فإن ابن خلدون طيلة حياته السياسية قد تورط في جملة من المؤامرات والدسائس انتهت به كثيراً إلى الحبس والسجن . من ذلك أنه بعد اتصاله بالسلطان أبي العنان وبعد أن لئاه السلطان وقر به وولاه - رغم حداثة - الكتابه ، واختصه في مجلسه للمناظرة والتوقيع عنه ، تأمر عليه مع الأمير أبي عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع . ونما إلى السلطان خبر المؤامرة وأن ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على أن يوليه حجابته متى تم له الأمر . فأمر بالقبض عليه وحبسه في عام 758هـ ، حتى توفي السلطان بعد اعتقاله فأطلق الوزير الحسن بن عمر سراحه ، وعامله بوجوه كرامته، وأحسن رعايته ومثواه، وردّه إلى سابق وظائفه⁽⁴⁴⁾ إلى أن اضطرب أمره، وثار عليه بنو مرين ، وتقرب ابن خلدون إلى السلطان منصور بن سليمان السلطان الجديد ، ومازال به حتى ولاه وظيفة الكتابة ، ناسياً بذلك فضل الوزير الحسن بن عمر عليه ، إذ أطلقه من الأسر وأحسن إليه⁽⁴⁵⁾

على أن ابن خلدون لم يلبث أن غدر بالسلطان الجديد، وذلك حينما أخذ أبو سالم بن أبي الحسن - أحد أخوة أبي عنان - يسعى لاسترداد العرش، بعث إلى ابن خلدون مع الفقيه ابن مرزوق كتاباً يطلب إليه بث دعوته والتمهيد لاستيلائه على السلطان، ويعدّه بأجمل خير وأكبر ثواب ، فقام ابن خلدون بالمهمة ومضى في تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا لدعوة أبي سالم ، فقد أعانه ابن خلدون بما كان بينه وبين شيوخ بني مرين من المحبة والاتلاف . وقد حاول ابن خلدون أن يبرر غدره وخيانتته للسلطان منصور بن سليمان قائلاً - لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر إلى السلطان أبي سالم " ⁽⁴⁶⁾ وقد انتهى الأمر بفرار منصور بن سليمان ، وجلس أبو سالم على عرش أبيه في سنة 760هـ.

وعين ابن خلدون في كتابة سره، والترسيل عنه، والانشاء لمخاطباته وجعله موضع ثقته وعطفه⁽⁴⁷⁾.

وفي كتابته للرسائل أكد ابن خلدون أنه قد نهج نهجاً جديداً ، اذ تحرر من قيود السجع ، فكان يومئذ قاعدة الكتابة ، وعدل عنه الى السهل المرسل، فانفرد به وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة . وكذلك فان شاعريته قد تفتحت في هذه الفترة فنظم الكثير من الشعر الذي يتوسط بين الإجادة والقصور ، في مناسبات مختلفة⁽⁴⁸⁾ واشتهر أمر نثره ونظمه في دوائر الادب والشعر بالمغرب والأندلس⁽⁴⁹⁾

ولبت ابن خلدون في كتابة السر والانشاء والمراسيم للسلطان أبي سالم زهاء عامين، ثم ولاه "خطة المظالم" فأداها بقوة وكفاية ،مما دفع الخطيب بن مرزوق صديق السلطان بالسعاية بابن خلدون غيرة ومنافسة . على أن الأمر لم يدم للسلطان أبي سالم حيث ثار عليه وزيره عمر بن عبد الله الذي قام بالأمر من بعده ، والذي أقر ابن خلدون على ما كان عليه بل وزاد في جريته ولكن ابن خلدون بما عرف عنه من طموح ، وبطغيان الشباب كان يتطلع إلى أرفع من ذلك فقرر الرحيل وانتهى به الأمر الى الأندلس⁽⁵⁰⁾ .

رحلة ابن خلدون الأولى من شمال إفريقيا إلى الأندلس ونشاطه فيها (764-766هـ)

وحيثما وقع الجفاء بين ابن خلدون وبين صديقه الوزير عمر ، اعتزم الرحلة الى الأندلس، كما قدمنا ، واختار ابن خلدون غرناطة من بين مدن الأندلس لما كان بينه وبين سلطانها ووزيره من صداقة ، ولما كان له عليها من أياد بيضاء وذلك أن سلطان غرناطة حينئذ كان محمد بن يوسف بن الأحمر النصرى "ثالث ملوك بني الأحمر" ، وكان وزيره الأديب الشهير لسان الدين بن الخطيب⁽⁵¹⁾ وكان بين ابن خلدون وبين هذا السلطان ووزيره صداقة قديمة توثقت وأصرها منذ أن كانا لاجئين في بلاط السلطان أبي سالم بفاس ، وكان ابن خلدون حينئذ كاتباً للسر والانشاء للسلطان أبي سالم كما قدمنا ،واتيح له في أثناء هذه الفترة أن يقدم لهما كثيراً من الخدمات⁽⁵²⁾

يبدو أن شهرة ابن خلدون قد سبقته إلى الأندلس فقد استقبل استقبالاً حسناً واهتز السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب لقدمه ، وعاملوه بمنتهى الإكرام والرعاية . وفي العام التالي لقدمه - أي في عام 765هـ - أوفده السلطان ابن الأحمر إلى ملك قشتالة لعقد صلح بينهما وتنظيم العلاقات . وقد عامله ملك قشتالة بالكرامة والإحسان وعلم بما

كان عليه سلفه بأشبيلية فعرض عليه البقاء عنده ومنحه أملاك أجداده في أشبيلية، إلا أن ابن خلدون قد رفض ذلك فعاد محملاً بالهدايا إلى غرناطة بعد أن أدى مهمته بنجاح⁽⁵³⁾ وبالرغم من الصداقة التي عقدها ابن خلدون مع وزير البلاط لسان الدين ابن الخطيب إلا أن الأخير قد تنكر له غيرة ومنافسة، فعزم ابن خلدون على ترك الأندلس خاصة أن أمير بجاية قد استدعاه بعد الاستيلاء عليها سنة 765هـ، واعداً ابن خلدون بتعيينه كحاجب⁽⁵⁴⁾

لا شك أن موقف صديقه ابن الخطيب قد ترك أثراً في نفسه خاصة وقد قرنا أنه كان يقف على الأحداث متأملاً ومعتبراً. وقد اعتبر العامل ذلك من الأحداث الهامة في حياة ابن خلدون، حيث ولد ما كان بينه وبين ابن الخطيب جنين نظرية ملخصها أن لشؤون الحكم قوانين بعيدة عن دنيا الأخلاق والمثل، وأنه من ضرورة وقواعد الاجتماع البشري التنازع للإدحام وتعدد الأغراض، حيث يقول "لقد قدمت هذه الواقعة الى ذهن ابن خلدون مزيداً من الشواهد، أضافها إلى ما كان قد تجمع في ذهنه في بلاط مدينة فاس، وتولد في وعية جنين نظرية، مؤداها ان لشؤون الحكم قوانين بعيدة عن دنيا الأخلاق والمثل.....(ومن ضرورة الاجتماع الإنساني التنازع لازدحام الأغراض). فقد داس ابن الخطيب بقدميه صداقته معه، كما داس الشراكة العلمية والأدبية خوفاً من أن ينال حظوة لدى العرش تشكل مزاحمة له على نفوذه⁽⁵⁵⁾

عودة ابن خلدون لإفريقية ونشاطه العلمي والسياسي (766-776هـ)

قدم ابن خلدون إلى بجاية سنة 766هـ ويبدو أن أمير بجاية لم ينس أن هذا الصديق قد عانى من أجله عذاب السجن حينما تأمر معه ضد السلطان أبي العنان - كما مر سابقاً - فقد أحسن استقباله وأركب أهل دولته للقاءه⁽⁵⁶⁾ وتولى ابن خلدون الحجابة لأمير بجاية، وقد أكد ابن خلدون عظم هذا المنصب قائلاً "ومعنى الحجابة - في دولنا بالمغرب - الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته لايشاركة في ذلك أحد"⁽⁵⁷⁾. وقد بذل ابن خلدون قصارى جهده في سياسة أمور الدولة وتدبير شئونها، وقدمه

السلطان أبو عبد الله للخطابة بجامع القصبية . وقد بين ابن خلدون شواغله تلك السياسية والعلمية قائلاً : "وأصبحت من الغد ، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقلت بحمل ملكه، واستوفيت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقد منى للخطابة بجامع القصبية، وأنا مع ذلك عاكف - بعد انصرافي من تير الملك غ دوة- إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبية لا أتفك على ذلك" (58)

ولعل هذا يقف شاهداً على ما ذهبنا إليه من أن نشاط ابن خلدون السياسي لم يصرفه عن العلم، فالبرغم من الجهد الذي كان يبذله في سياسة أمور الدولة، وبالرغم من توليه لمنصب وزير رفيع - أي الحجابة - لم ينصرف عن العلم وأجوائه، فقد قام بالتدريس والخطابة في جامع القصبية العريق . فجمع بذلك بين أرقى مناصب السياسة وأرقى مناصب العلم .

على أن الأحوال كعهدنا بها في المغرب لا تدوم على حال، فقد نشبت خصومة ونزاع بين سلطان بجاية وابن عمه أبي العباس أحمد صاحب قسنطينة انتصر فيها الأخير وانحاز له ابن خلدون ، وقد وصف ابن خلدون ذلك قائلاً : "وجاءني الخبر بذلك ، وأنا مقيم بقصبية السلطان وقصوره.... وخرجت إلى السلطان أبي العباس ، ففكرتني وحياني وأمكنته من بلده" (59)

ولعل هذه ليست المرة الأولى التي ينحاز فيها ابن خلدون للسلطان المنتصر فقد انحاز من قبل إلى السلطان منصور بن سليمان ضد الوزير ابن عمر، رغم أن الأخير قد أحسن رعايته وأطلق سراحه من السجن، ثم ما لبث أن غدر بالسلطان الجديد وانحاز للسلطان أبي سالم . ثم وقف ضد الأخير وانحاز إلى وزيره المنتصر عمر بن عبد الله - وهو الأمر الذي بيناه سابقاً - والسؤال هل يؤكد هذا ما ذهبنا إليه من أن ابن خلدون قد شعر أن ثمة قوانين أخرى بعيدة عن الأخلاق تحكم عالم السياسة والحكم؟، وهل يعني هذا انقياد ابن خلدون لقانون العصبية (60) لذي يعد قانوناً ومفهوماً مركزياً تضمنه (كتابه الأول) الذي اشتهر وعرف باسم (المقدمة)؟ وهل تعنى مواقفه تلك أنه يؤمن بالفعل أن الملك هو التغلب والحكم بالقهر، وأن صاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه ، وأنه لا سبيل إلى التغلب والقهر إلا بالعصبية ، (61) وأن الوصول للملك ليس بالضرورة أن يتم بطرق

أخلاقية، بل إنه يتم في الغالب بالقهر والغلب ، فتقع المنازعة المؤدية إلى الحرب والقتال إذ يقول (ثم أن الملك منصب شريف ملذوذ... فيقع فيه التنافس غالباً ، وقلَّ أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعة فتقضي إلى الحرب والقتال والمغالبة، وشيء منها لا يقع إلا بالعصبية) .⁽⁶²⁾

يبدو أن الأمر ليس تنكراً من ابن خلدون لسيدته بمجرد هزيمته كما ذهبت زينب الخضيري⁽⁶³⁾ وعنان⁽⁶⁴⁾ ، وليس مجرد دليل على ما تحيى به نفسه من الأثرة ونكران الصنعة كما ذهب علي وافي⁽⁶⁵⁾ بل هو أعمق وأبعد من ذلك ، فقد أدرك ابن خلدون جيداً وهو في معترك الحياة السياسية والعلمية ، أن العصبية الأقوى هي المنتصرة دائماً فالعصبية لا تقف دونها إلا عصبية أقوى منها ، ونحن بهذا لا نقف مدافعين ومبررين لمواقف ابن خلدون ، ولكننا نؤكد أن ابن خلدون قد استقى الكثير من نظرياته من واقعه ومن مشاهداته ، وفي الوقت نفسه فإن تلك المشاهدات والأحداث التي مرت به قد انعكست على بعض المواقف التي قد نتسرع في الحكم عليها - كتتكريمه للمنهزم وانحيازه للأقوى - في الوقت الذي لو دققنا فيه النظر لأدركنا أنها صدى لمفاهيم ونظريات رسخها الواقع في ذهنه .

لم يدم ما بين ابن خلدون والسلطان أبي العباس من الإلفة طويلاً فقد تدخل الوشاة مرة أخرى ليفسدا ما بينهما ، فما كان من ابن خلدون إلا أن استأذن من السلطان وقصد بسكرة يقول ابن خلدون " وكثرت السعابة عنده في ، والتحذير من مكاني ، وشعرت بذلك ، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك ، فأذن لي بعد ما أبقى وقصدت بسكرة لصحابة ببني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن وني"⁽⁶⁶⁾

كان السلطان أبو حمو سلطان تلمسان صهراً لأمير بجاية المقتول ، وكان يطمح في فتح بجاية ، فلما بلغه مقتل صهره فكر في الاستيلاء على بجاية ، ولما هزمت قواته التي أرسلها فكر في الاستعانة بقبائل رياح ، فخاطب ابن خلدون في ذلك لما كان يعلمه من نفوذ في بجاية وما حولها من القبائل ، وقرب عهده في ملك زمامهم والسيطرة عليهم . واستدعاه لحجابته وعلامته وذلك عام 769 هـ ، إلا أن ابن خلدون قد اعتذر عن قبول الوظيفة تلك المرة باعتبار أخاه يحيى كالنائب عنه لأنه كان قد زهد عن الرتب والوظائف

السلطانية ، واشتاق الى المطالعة والتدريس بعد أن هجره طويلاً ، ولكنه مع ذلك استجاب إلى بث الدعوة بين القبائل وتحويلها من جانب أبي العباس إلى جانب خصمه أبي حمو (67)

وقد استمر ابن خلدون في بسكرة يعمل بنشاط في استمالة القبائل في جانب أبي حمو ، وتأليبها على أبي العباس ، ويعمل من جهة أخرى على عقد أواصر التحالف بين أبي حمو وأبي إسحاق سلطان تونس (68)

لم يكن السلطان أبي حمو هو الوحيد الذي لجأ إلى ابن خلدون للاستعانة بنفوذه لإقناع البدو على مناصرته ، فولاء ابن خلدون لأبي حمو لم يطل امده ، فسرعان ما تحول عنه إلى عدوه، يؤلب القبائل عليه بعد أن كان يؤلبها لتأييده . ذلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز أبي الحسن خرج في جيوشه يومئذ يزمع غزو تلمسان وانتزاعها كرة أخرى من قبضة بني عبد الواد فعهد إلى ابن خلدون أن يبيث دعوته بين القبائل ويحملهم على مناصرته ومقاتلة عدوه أبي حمو، فقبل ابن خلدون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واستمالتها لمحاربة صديقه بالأمس، ولبثت جنود السلطان تقتفي أثر أبي حمو حتى دهمته في أعماق الصحراء ومزقت معسكره، وذلك عام 772هـ. (69)

إن اتصال ابن خلدون المتكرر بتلك القبائل يستدعي وقفة وتأملاً ، فيبدو أن ابن خلدون قد استقى نظرياته عن الحضارة والبداءة، وقيام الدول وزوالها من احتكاكه بهذه القبائل. وقد ذهب كثير من الباحثين والدارسين إلى ذلك، فنجد زكريا بشير - على سبيل المثال - يقول (وفي المغرب الأوسط تعرف ابن خلدون على سلطان تلمسان الذي طلب منه مساعدته في إخضاع قبائل الرياح العريقة، وهذه كانت قبائل من البدو شديدي المراس، وأفي البأس والشجاعة. وفي وسط هذه القبائل اكتسب ابن خلدون معظم معارفه ونظرياته عن البدو وحياتهم وأسلوب معاشهم، وميولهم، ومميزاتهم النفسية والقتالية، وكانت تلك المعارف والخبرات والتجارب النواة الفكرية التي تكون منها كتاب (العبر) فيما بعد). (70)

أما زينب الخضير فتقول (وتلك المعرفة الوثيقة بالبدو وبطبيعتهم وبطبيعة مجتمعاتهم هي التي ساعدته على وضع نظريته المبكرة عن العصبية وعن تكوين الدولة) (71)

ويقول مصباح العاملي (غير أنه - أي ابن خلدون - لم يرفض الطلبات المتلاحقة من عدة ملوك وأمرء يطلبون إليه أن يكون موثقاً من قبلهم إلى القبائل لإمدادهم بأسباب القوة، ... فقد وجد أن هذه المهمة لا تتعارض مع غايته في دراسة العلاقة العاصفة بين مجتمعي البداوة والحضارة)⁽⁷²⁾ ويقول بوتول (بفضله وظائفه نال - ابن خلدون - معرفة عميقة بأحوال أهل البدو الذين خصهم بمكان كبير في فلسفة تاريخه)⁽⁷³⁾

ويرى أومليل⁽⁷⁴⁾ وناصيف نصّار⁽⁷⁵⁾ أن النظرية التاريخية لابن خلدون لا تشمل مجموع التاريخ بل تتعلق بتاريخ معين: هو التاريخ الذي يتناول الشعوب ذات البنية القبلية. شعر ابن خلدون وهو مقيم ببسكرة مع أهله أن صاحب زمام رياح أحمد بن يوسف بن مزني قد أدرك أن نفوذ بن خلدون على القبائل صار أقوى من نفوذه، وأنه قد حدثت المنافسة في استتباعهم، فعزم على الرحيل إلى السلطان عبد العزيز ولكن ابن خلدون سمع بوفاة وهو في الطريق إليه، وعلم أن ابنه أبا بكر السعيد قد نصب بعده في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي، وأن البلاط قد تحول من تلمسان إلى فاس، فاقام ابن خلدون بمكانه في دولتهم أثير المحل، ثابت الرتبة، عظيم الجاه منذ قدومه على الوزير ابن غازي عام 774هـ.⁽⁷⁶⁾

وفي سنة 776هـ نشبت فتنة في المغرب الأقصى انتهت بخلع السلطان السعيد وتحتية الوزير ابن غازي، واستيلاء الأمير عبد الرحمن والسلطان أبو العباس أحمد ابن السلطان الأسبق إبي سالم - على فاس. وقد إنحاز إليهما أهل الدولة من الفقهاء والكتاب والجند، وكان منهم ابن خلدون⁽⁷⁷⁾

أقام ابن خلدون بفاس في ظل الدولة ورعايتها، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إليه ويشاوره في أحواله فغص بذلك الوزير محمد بن عثمان، وانتهى الأمر إلى سجن ابن خلدون، إلا أن الأمير عبد الرحمن أمر بالإفراج عنه⁽⁷⁸⁾ بعد الإفراج عن ابن خلدون يبدو أن المقام لم يطب له بفاس ولا قصورها، فقد رحل إلى الأندلس فارقاً من التقلبات السياسية، ومن المغامرات والدسائس والفتن، متشوقاً إلى العلم والدراسة وكان ذلك عام 776هـ. وكانت هذه رحلته الثانية إلى الأندلس إلا أن سلطان فاس طلب من سلطان غرناطة تسليم ابن خلدون لخوفه من دسائسه فقد شعر أن

ابن خلدون قد يحمل السلطان ابن الأحمر سلطان غرناطة على الميل إلى الأمير عبد الرحمن الذي يحلم بغزو المغرب، وانتهى الأمر بعودة ابن خلدون إلى تلمسان⁽⁷⁹⁾

عزلة ابن خلدون في شمال إفريقية (قلعة بني سلامة في تونس) والتأليف

قدم ابن خلدون إلى تلمسان سنة 776هـ بعد أن أذن له السلطان أبو حمو الذي عفا عنه بعد أن كان ناقماً عليه لما فعله في حقه مرة بعد مرة⁽⁸⁰⁾ .

قرر ابن خلدون أن ينقطع للدرس والمطالعة وبث العلم، لكن أبا حمو أراد أن يكلفه باستئلاف بعض القبائل، فتظاهر ابن خلدون بالقبول لكنه كان قد رغب عن غمار السياسة، وأثر العزلة والانقطاع للدرس . لذلك فقد لحق بأحياء أولاد عريف، الذين أكرموا غاية الكرم، وأنزلوه بأهله في قلعة أولاد سلامة⁽⁸¹⁾ والتي أقام بها أربعة أعوام شرع فيها بتأليف تاريخه بمقدمته الرائعة. يقول ابن خلدون مبيناً ذلك: "ولحقت بأحياء أولاد عريف ... وأنزلوني بأهلي في قلعة أولاد سلامة... فأقمت بها أربعة أعوام متخلياً عن الشواغل، وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شأبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتحضت زبدتها، وتألّفت نتائجها"⁽⁸²⁾

إذن فقد انقطع ابن خلدون متزوداً بما نال من علوم، ومن تجارب سياسية وعملية لكتابه مؤلفه في التاريخ المسمى (العبر) بمقدمته الشهيرة، التي تعتبر مدخلاً منهجياً للتاريخ، والتي ظهر فيها معاشية وتفاعل ابن خلدون مع بيئته الخاصة، التي لم تخلو من محن وكوارث بما لحق العالم الإسلامي كما أسلفنا.

رفع ابن خلدون من مقدمته إلى اخبار العرب والبربر وزناته ، وشعر بحاجته الى الاطلاع على بعض الكتب التي لا توجد إلا بالأمصار ، خاصة وأنه قد أملى الكثير من حفظه ، وأراد التقيح والتصحيح ، فاستأذن السلطان أبا العباس بالرحيل الى تونس حيث قرأ آباءه ومساكنهم وآثارهم ، فارتحل في عام 780هـ⁽⁸³⁾

في تونس أوى ابن خلدون إلى رعاية السلطان وغايته ، فعمل بالتدريس، والتف حوله طلبه العلم للإفادة منه ، وعكف على إكمال مؤلفه التاريخي بتكليف من السلطان أبي العباس الذي كان محباً للمعارف والأخبار ، فأكمل نسخة⁽⁸⁴⁾ أهداها إليه. يقول ابن

خلدون (وقد كلفني السلطان بالإكباب على تأليف هذا الكتاب، لثشور⁸⁵فه إلى المعارف والأخبار ، واقتناء الفضائل، فأكملت منه أخبار البربر وزناته ، وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصلي⁸⁵إلّ منها وأكملت منه نسخة رفعتها الى خزائنه⁽⁸⁵⁾.

شعر ابن خلدون أنه أصبح موضع السعاية والكيد من منافسيه وخصومه، ورغم أن هذه السعاية لم تثمر في حرمانه من رعاية وعطف السلطان ، إلا أنها أثمرت في التغيص عليه ولزعاجه من طريق آخر ، حيث أقنعوه باصطحاب ابن خلدون في خروجه وسفره لمقاتلة الخوارج سنة 783هـ . وصدع ابن خلدون بالأمر مكرهاً لأن نفسه كانت قد رغبت عن المهام السياسية وتكاليها⁽⁸⁶⁾

ولما أتم ابن خلدون المهمة وعاد إلى تونس خشي أن يعود السلطان الى استصحابه في حملات، فاعتزم عندئذ مغادرة تونس، فاستاذن السلطان للرحيل لأداء فريضة الحج في عام 784هـ ، وودعه أعيان الدولة والأصدقاء والتلاميذ⁽⁸⁷⁾ . اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بالحوادث والمغامرات، فقد انفق ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور، وتقلب في خدمة جميع الدول المغربية، وتمتع بمزايا الريسة والحكم، وذاق مراراً محن الاعتقال والأسر وخطر الهلاك ولكنه مع ذلك كان يلتزم السلوى في البحث والتأليف .

رحلة ابن خلدون في داخل إفريقيا(مصر) ونشاطه العلمي والعملية

رحل ابن خلدون من تونس وأقام بالاسكنوية شهراً لتهينة أسباب الحج ، إلا أنه لم يستطع أن يؤدي تلك الفريضة في ذلك العام .

وصل ابن خلدون الي القاهرة - بعد أن تعذر حجه - فيهرته ضخامتها وعظمتها وبهاؤها ، وقد عبر عن عميق إعجابه قائلاً "قرأيت حاضرة الدنيا ، ويستأن العالم ، ومحشر الأمم ، وليوان الإسلام ، وكروسي الملك وتضيء البور والكواكب من علمائه....."⁽⁸⁸⁾

يبدو أن شهرة ابن خلدون قد سبقته إلى مصر⁽⁸⁹⁾ ، فقد التف حوله الكثير من طلبة العلم ينهلون من علمه ، وتصدّر ابن خلدون في الجامع الأزهر حلقة التدريس . ويصف ابن خلدون شدة الإقبال عليه فيقول في زهو وتواضع معاً "ولما دخلتها-أي القاهرة -،

أقامت أيام واثال عليّ طلبية العلم بها، ويلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ولم يوسعوني عنراً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها⁽⁹⁰⁾ " وقد صور لنا معاصره المقرئ ذلك قائلاً (وفي هذا الشهر (رمضان) ، قدم شيخنا ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون من بلاد المغرب،....وتصدى للاشتغال بالجامع الأزهر، فأقبل لناس عليه وأعجبوا به)⁽⁹¹⁾

وجلس ابن خلدون - بالإضافة إلى الأزهر - للتدريس بمدرسة القمحية ، حيث ولاه السلطان تدريسها . ثم كان أن عزل السلطان الظاهر برفوق القاضي المالكي، وهو رابع أربعة بعدد الملعب ، وعيّن ابن خلدون مكانه وذلك عام 786 هـ . ويصف ابن خلدون هذا الحادث الذي مكنه من تقلد منصب من أرفع المناصب قائلاً فلما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين ، اختصني السلطان بهذه الولاية تأهيلاً لمكاني وتنويهاً بذكري، وبعث من كبار الخاصة من أقدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين)⁽⁹²⁾

ويخبرنا ابن خلدون عن عدله وصرامته في ممارسته للقضاء قائلاً (ووفيت جهدي بما أمني عليه من أحكام الله ، لا تأخذني في الحق لومة لائم ،.... وسياً في ذلك بين الخصمين ، آخذاً بحق الضعيف من الحكّمين معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين)⁽⁹³⁾ .

ويبدو أن القضاء كان فاسداً آنذاك ، وأن البر من الشهود كان مختلطاً بالفاجر والحكام متجاوزون عن كل ذلك . وقد تصدى ابن خلدون لمفاسدهم بصرامة حتى أنه منع بعض المدرسين من تحمل الشهادة استناداً على علمي الجرح والتعديل ، وقد بين ذلك قائلاً فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر ... فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقعت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال ، وتأدى إلى العلم بالجرح في طائفة منهم ، فمنعتهم من تحمل الشهادة...⁽⁹⁴⁾ "

وقد شهد بعض المؤرخين المعاصرين لابن خلدون بصرامته وتوخيه للعدل فقد وصف أبو المحاسن ولايته للقضاء قائلاً بفضله بحرمة وإفرة ، وعظمة زائدة وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان⁽⁹⁵⁾ " . ووصف ابن حجر صرامته وحزمه في

توقيع العقوبات قائلاً "وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود وصار يعزر بالصفح وشبهة الزج ، فإذا غضب على إنسان قال زجوه فيصنع حتى تحمر رقبته"⁽⁹⁶⁾ ويقول أيضاً "ولم يشتهر عنه في منصبه إلا الصيانة"⁽⁹⁷⁾

وانتفت ابن خلدون أيضاً إلى الفتيا ، ووجد أن بعض أهلها أصغر وصلوا إليها دون أهلية ، فتصدى لهم مانعاً بعض أهل الفتيا من الفتيلجهلم ولانقيادهم للهوى . مما جعلهم يناصرونه العدا ، ويدسون إلى السلطان التظلم منه ، إلى أن أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة ، ووافق ذلك مصابه بالأهل والولد الذين غرقوا وهم في الطريق إليه، فعزله السلطان من منصب القضاء وردّه إلى صاحبه الأول، وذلك في العام 787هـ⁽⁹⁸⁾

ولم تكن تحية ابن خلدون عن منصب القضاء مقرونة بسخط واضح من السلطان عليه، بدليل أن السلطان قد أبقاه في منصب التريس بالمحمية ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكي بمدرسته الجديدة في حي بين القصرين ، وهي المدرسة الظاهرية البرقوقية⁽⁹⁹⁾

عكف ابن خلدون على التدريس والقراءة والتأليف بعد العزل ثلاث سنين ، حتى كان موسم الحج عام 789هـ ، اعتزم عندئذ قضاء الفريضة ، وبعد قضائها رجع إلى القاهرة فتلقاه السلطان بمعهود مبرته وعنايته ، وولاه الحديث في مدرسة صلغتمش⁽¹⁰⁰⁾ بدلاً من تدريس الفقه المالكي بالمدرسة الظاهرية البرقوقية، وذلك في عام 791هـ⁽¹⁰¹⁾

مضى ابن خلدون على حاله من التدريس والتأليف حتى ولاه السلطان نظارة خانقاه ببيرس ، وهي يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجئ الصوفية⁽¹⁰²⁾ وأقام ابن خلدون على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري⁽¹⁰³⁾ التي انتهت بخلع برقوق عن العرش ، ففقد ابن خلدون مناصبه وأرزاقه كلها أو معظمها، ولما استرد السلطان العرش بعد ذلك بقليل أعادها إليه ، ولكنه عزل بعد ذلك من وظيفته بنظارة الخانقاه لسعاية خصومه به ، وكان ذلك بعد تعيينه بها بنحو سنة⁽¹⁰⁴⁾

لبث ابن خلدون منذ العزل عن القضاء الأول سنة 787هـ مكباً على الاشتغال بالعلم ، تأليفاً وتدريساً ، حتى عينه السلطان مرة ثانية في منصب قاضي قضاة المالكية سنة 801هـ ، بعد أن ظل مقصياً عنه زهاء أربعة عشر عاماً . وبعد وفاة الظاهر برقوق

أبقاه خليفته - ابنه الناصر فرج - في وظيفته، إلا أنه استأذن في السفر إلى بيت المقدس ، ومشاهدة آثار هذه البلاد ، فأذن له ، فسافر إليها ولم يعد إلا في أواخر شهر رمضان سنة 802هـ⁽¹⁰⁵⁾

وبعد ثلاثة أشهر من عودته من بيت المقدس عزل من منصب القضاء للمرة الثانية، وذلك لسعاية خصومه ، فرجع ابن خلدون للاشتغال بتدريس العلم وتأليفه⁽¹⁰⁶⁾ . وفي العام نفسه جاءت الأنباء أن تيمور لنگ قد هاجم الشام بجيوشه واستولى على حلب ، وأنه في طريقه إلى دمشق ، وكانت الشام حينئذ تابعة لسلطان المماليك في مصر، ففرع الناصر لهذا الخبر، فجمع جيوشه وتوجه إلى الشام مصطحباً ابن خلدون فيمن اصطحب من القضاة والفقهاء . ودارت المعارك التي ثبت فيها المصريون ، إلا أن سلطان مصر سمع أن انقلاباً على وشك الحدوث للإطاحة به ، فما كان منه إلا أن رجع إلى بلاده - وفي غيابه استطاع الفريقان التفاوض واتفق العرب مع تيمور (تمر كما يسميه ابن خلدون) على فتح مدينة دمشق من الغد للتتر ودخول أمير ينزل بمحل الإمارة منها ويملك أمرهم عزراً ولايته⁽¹⁰⁷⁾ .

يبدو أن شخصية ابن خلدون كانت جذابة للخاصة والعامة ، كما كانت أكثر جاذبية للملوك والرؤساء ، فحينما التقى ابن خلدون بتيمور ، وتمت المقابلة بالطريقة المثيرة التي أوردتها كتب التاريخ ، لكي يطلب الأمان لسكان دمشق - فقد نزل متدلياً بالحبال من سور المدينة حيث صحب السلطان - أحسن السلطان لقاءه ورحب به رغم أن ذلك لم يكن سبيله في لقاء الناس ، فقد كان فظاً خشناً سفاكاً للدماء . ولكن شخصية ابن خلدون ولباقته جذبت إليه بحيث حاول استبقاءه لديه طبقاً لبعض الروايات فضلاً عن تكليفه إياه كتابة كتاب عن بلاد المغرب⁽¹⁰⁸⁾

ويظهر أن ابن خلدون كان يعلق على صلته بتيمور لنگ مالملاً آخرى غير ما وفق إليه في شأن دمشق ، ولعله كان الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه ، غير أنه لم يوفق إلى تحقيق هذه الأمانى فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء في دمشق ، واستأذن تيمور لنگ في العودة إلى مصر فأذن له⁽¹⁰⁹⁾

وصل ابن خلدون الى مصر واسترد منصب قاضي قضاء المالكية في اواخر عام 803هـ، ثم عزل منه عام 804هـ ، ولقد تولى هذا المنصب ثلاث مرات بعد ذلك، وفي كل مرة يعزل منه نتيجة للحرب الدائرة بينه وبين خصومه ، إلا أنه في المرة الثالثة لم يمهلها العمر ليعزل، فقد توفي في عام 808هـ عن عمر يناهز ثمانية وسبعين عاماً . ودفن في مقبرة الصوفية بالقاهرة (110)

قضى ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاماً (784-808هـ) وكانت بمثابة فترة مثمرة ، امتازت بعطاء فكري وعلمي . فقد عمل على تنقيح وتهذيب كتابه الكبير (العبر) وأضاف إليه إضافات مهمة تمثلت في أخبار دول المشرق الإسلامي، ووصل بأخبار التاريخ إلى نهاية القرن الثامن الهجري بعد ان كان قد وقف بها عند سنة 783هـ ، وهي السنة السابقة لمجيئه الى مصر ، فهو يذكر عن رحلته إلى المشرق وإقامته في مصر أنه أكمل مانقص من أخبار ملوك العجم ودول الترك قائلاً "تم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتلاء نوار ه ، وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاهه، والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره، فزدت مانقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار .واتبعت ماكتبته في تلك الاسطار ، وادرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من امم النواحي وملوك الأمصار والضواحي ، سالكاً سبيل الاختصار والتخليص مقتدياً بالمرام السهل من العويص . (111)

وكذلك فقد أضاف ابن خلدون بعض فصول أو بعض فقرات من المقدمة ونقح كتاب (التعريف)، فقد استمر في كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته في مصر ، واستمر فيها إلى قبيل وفاته ، وضمنها فصولاً جديدة عن خواص دول المماليك المصرية ، ونشأة التتار ، ثم قدم نسخة من كل هذا إلى سلطان مصر ، وأرسل نسخة إلى سلطان المغرب الأقصى أبي فارس بن عبد العزيز ، وتسمى هذه النسخة بالنسخة الفارسية وهي النسخة التي طبعت على أساسها جميع الطباعات الموجودة في العالم العربي . (112)

ويذكر مصطفى الشكعة شاهداً ودليلاً يؤكد به على أن ابن خلدون قد أضاف إلى المقدمة بعض المكتسبات التي طرأت على حصيلته العلمي والفكري قائلاً "ولقد فعل ابن خلدون وهو في مصر نفس الصنيع بالمقدمة، فأجرى فيها بعض الزيادات التي اقتضتها

الإقامة , وأضاف إليها بعض المكتسبات التي طرأت على حصيلته العلمية والفكرية ، وهو يقرر ذلك في سياق بعض فصول المقدمة مثل قوله في الفصل الذي خصصه للعلوم العقلية "ولقد وقفت بمصر على تأليف متعددة لرجل من عظماء هرة من بلاد خراسان ، يشتهر بسعد الدين التفتازاني ، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان، تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم" وينتهي الشكعة إلى أن أثر مصر في ابن خلدون كان واضحاً ، وأنه قد كتب غير قليل من فصول المقدمة في مصر، ولا سيما الفصول الخاصة بعلم الكلام وعلم التصوف وفصول العلوم العقلية⁽¹¹³⁾

لم تكن تلك الإضافات التي الحقها ابن خلدون بالمقدمة والعبر والتعريف هي كل عطاؤه الفكري والعلمي فقد جلس ابن خلدون - كما أسفنا - للتدريس في أشهر المدارس بالإضافة الى الجامع الأزهر , وأصبح بعض تلاميذه من أشهر علماء المسلمين أمثال (ابن حجر العسقلاني) (القريري) بالإضافة إلى أنه قد تقلد مناصب رفيعة مثل قاضي قضاة المالكية ، وكذلك منصب شيخ خانقاه بيبرس, والتي كان يعيش فيها عدد كبير من الصوفية يمارسون حياتهم الخاصة بكل ما فيها من طقوس , مثل الذكر والتلاوة والأورد، وقد أتاحت له هذه المخالطة - كما يقول الشكعة - تسجيل الجديد من الأفكار عن هذا الفريق من المسلمين⁽¹¹⁴⁾ .

وبالرغم من أثر ابن خلدون الواضح في الأوساط العلمية في مصر ، إلا أن معاصريه قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في شأنه ، فهناك من أغرقه وبالغ في مدحه وطرأه، وهناك من تحامل عليه حتى أن بعضهم قد رماه في خلقه .

فمن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلاني المحدث والمؤرخ الكبير، فهو يقول لنا في كتابه "رفع الإصر عن قضاة مصر إنه (اجتمع بابن خلدون مراراً وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً في التاريخ)⁽¹¹⁵⁾ وإنه (صنف التاريخ الكبير في سبعة مجلدات ضخمة ، ظهرت فيه فضائله ، وأبان فيه عن براعته)⁽¹¹⁶⁾ . إلا أنه عاد فانقص من قدره مؤكداً أنه لم يكن مطلعاً على الأخبار على جليتها ولا سيما أخبار للشرق ، بل ونقل كثيرًا مما قيل في ذمه وتجريحه⁽¹¹⁷⁾

ومن المشيدين بابن خلدون المقرئ الذي درس عليه وأعجب بغزير علمه وطريف لآئه ونظرياته ، ووصف المقدمة قائلاً "لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وُلف من الماء سرى به النسيم"⁽¹¹⁸⁾

واختلفوا حتى في تقييمه كقاض فنجد أبا المحاسن بن تغري بردي يقول عنه "ولاه الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة المالكية بديار مصر ... فباشره بخومة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة وشفاعات الأعيان فأخذوا في التكلم في أمره ، ولازالوا بالسلطان حتى عزله"⁽¹¹⁹⁾ "

أما ابن حجر فقد قال عنه في (رفع الإصر) "وه الملك برقوق في قضاء المالكية بالديار المصرية فباشرها مباشرة صعبة ، وقلب للناس ظهر المجن ... وقيل إن أهل المغرب لما بلغهم أنه ولي القضاء ، عجبوا من ذلك ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة."⁽¹²⁰⁾ على أن ذلك لم يمنع ابن حجر وغيره من خصوم ابن خلدون من أن يستمعوا الي دروس ابن خلدون وينتفعوا بها ، بل لم تمنعهم هذه الخصومة الأدبية من أن يطلبوا إليه أن يمنحهم الإجازة العلمية التقليدية التي كان الظفر بها من أكابر العلماء والأساتذة شرفاً .⁽¹²¹⁾ كان لا بد أن تقف عند مصر كل تلك الوقفة ، لأن مصر كان لها أثرها على عطاء ابن خلدون الفكري والعلمي، وأكبر شاهد على ذلك ما ذهبنا إليه من أن ثمة تنقيح وإضافات مهمة قد الحقها ابن خلدون بتاريخه وبالمقدمة وهو مقيم بمصر ، والغريب أن مصباح العاملي قد تجاوز هذه المحطة وأثر أن يتابع رحلة ابن خلدون غرباً ، مسقطاً القسم الشرقي من الرحلة ، باعتبار أنه قد ظهر إلى الوجود بعد وضعه لعلم العمران إذ يقول "لقد دون ابن خلدون وقائع حياته تحت عنوان (رحلة ابن خلدون شرقاً وغرباً) وحاجتنا من هذه الرحلة هي قسمها الغربي فقط ، لأن القسم الثاني من هذه الرحلة ظهر إلى الوجود بعد وضعه لعلم العمران" .⁽¹²²⁾ وهو الأمر الذي اثبتنا خلافه، حيث أضاف ابن خلدون إضافات إلى مقدمته في القسم الشرقي من رحلته.

شواغل ابن خلدون في إفريقية كانت علمية وسياسية طيلة حياته

حاولنا فيما سبق أن نعرض جوانب من حياة ابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً مركزين على الحوادث والتجارب التي كان لها أثرها على فكره ، ورأينا كيف كانت الرغبةتان (العلم والسياسة) تلازمان ابن خلدون منذ نشأته الى وفاته . وبالرغم من أن ذلك يبدو واضحاً كل الوضوح ، إلا أن بعض الباحثين قد قسموا حياة ابن خلدون إلى مراحل ، تبدو فيها كل مرحلة وهي تكاد تتفصل عن الأخرى فهناك مرحلة كان فيها ابن خلدون متفرغاً للعلم والدراسة ، ومرحلة للعمل السياسي ، بل ومرحلة للفأل والتفكير ، وأخرى للتدريس والقضاء ، كما فعل كل من زكريا بشير وزينب الخضيرى.⁽¹²³⁾

بالرغم من أن الاثنيتين معا قد قررا لى حب السلطة وحب العلم والاستزادة منه قد لازم ابن خلدون .⁽¹²⁴⁾ إلا أنهما قد عادا وقسما حياته إلى مراحل تكاد تعمل فيها كل رغبة بمعزل عن الأخرى .فقد قامت زينب الخضيرى بتقسيم حياة ابن خلدون إلى أربع مراحل أو أربعة أنوار :-

الدور الأول : وهو دور الدراسة حتى سن العشرين وقد قضاءه بتونس .

الدور الثاني : وهو دور العمل السياسي وهو يمتد من 752هـ إلى 776هـ .

الدور الثالث : وهو دور التأمل والتفكير في قلعة ابن سلامة والتي استمرت أربع سنوات فقط حتى نهاية 780هـ.

الدور الرابع : وهو دور الانصراف إلى التدريس والقضاء وتمتد هذه الفترة من عام 784هـ الى وفاته عام 806هـ .⁽¹²⁵⁾

واختار زكريا بشير تقسيماً يكاد يطابق ذلك التقسيم لم يبدو من خلاله تلازم الرغبةيتين . فقد قسم حياة ابن خلدون إلى أربع مراحل :-

المرحلة الأولى : هي مرحلة النشأة الأولى في تونس ، والتي اتم فيها ابن خلدون تعليمه الذي كان نموذجياً ومتقناً . ولم ينف قيام الترتعنتين المتوازيتين نحو السياسة والعلم في شخصية ابن خلدون في هذه المرحلة لأنه كان يتلقى تعليمه في ظل تشجيع آل حفص ورعايتهم⁽¹²⁶⁾ .

أما المرحلة الثانية: وبقية المراحل فلا نشعر فيها بما يدل على ذلك التلازم ، فقد ذهب زكريا بشير - كما ذهبت زينب الخضيرى من قبل - إلى القول بأن المرحلة الثانية كانت مرحلة الانخراط في العمل السياسي ، والتي استمرت نحواً من خمسة وعشرين عاماً . أما المرحلة الثالثة فقد كانت مرحلة التأليف والكتابة وامتدت لمدة ثمان سنوات (127).

والمرحلة الرابعة هي مرحلة التدريس بالأزهر وتولي الفتيا والقضاء المالكي بمصر . (128) يبدو من خلال التقسيمين أن كل رغبة تعمل بمعزل عن الأخرى ، في الوقت الذي لو تأملنا فيه حياة ابن خلدون لوجدناه دائماً وفي كل مراحل حياته مشغولاً بالعلم والسياسة معاً . فعلى سبيل المثال لم يكن تلقيه للعلم منذ نشأته الأولى بمعزل عن أجواء السياسة والسلطة ، فقد نشأ ابن خلدون - كما سبق أن بينا - في كنف آل حفص .

اتجه ابن خلدون في سن مبكرة إلى ممارسة العمل السياسي ، إلا أن ذلك لم يتعارض مع شواغله العلمية ، فقد كلف منذ البداية بوظيفة من وظائف القلم . (129) فقد أصبح - كما بينا سابقاً - كاتباً في ديوان السلطان الحفصي ابي اسحق ، وأصبح من بعد ذلك كاتباً للسلطان المريني أبي عنان . وبالرغم من أنه قد أكد أن هذه الوظيفة تفقد أهميتها في فترات لصالح الحاجب (130) إلا أنه قد أكد أنها وظيفة رفيعة يختص بها أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم (131).

إذن فان هذه الوظيفة ذات طابع أدبي وعلمي بالرغم من كونها وظيفة سلطانية وسياسية ، وابن خلدون يؤكد أنه لا بد لمن يزاولها أن يكون ملماً بالعربية وعلومها وبالجملة يكون ممن نظر في كل من فنون العلم فأحكمه ، وان لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به (132) وابن خلدون حينما كان يزاول هذه المهنة في بلاط السلطان أبي العنان ، اختص بمجلس السلطان العلمي الذي كان ينتظم فيه خيرة أهل العلم في فاس (133) .

ويبدو أن ابن خلدون قد أعانته براعته في اللغة والأب مرة أخرى ، فقد قام بالترسيل عن السلطان أبي سالم والإنشاء لمخاطباته ، وقد أكد ابن خلدون أنه أدى هذه الوظيفة على نحو انفرادي وتميز به عن سابقه إذ يقول "واستعملني - أبو سالم - في كتابة سره والترسيل عنه والإنشاء بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع ،

لضعف انتحالها ، وخفاء المعاني منها على أكثر الناس بخلاف غير المرسل، فانفردت به يومئذ ... ثم أخذت نفسي بالشعر ، ولأن عليّ منه بحور توسطت بين الإجابة والقصور⁽¹³⁴⁾ ثم كان رأو لاه السلطان خطة المظالم⁽¹³⁵⁾ والتي بيدّ ن ابن خلدون أنها تحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين ، وفي الوقت نفسه تحتاج للعلم بالعلوم الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة⁽¹³⁶⁾ فهي مزيج من سطوة السلطة ورأفة الشرع أو كما يقول ابن خلدون: " وهي وظيفة ممتازة من سطوة السلطنة ونصفه القضاء"⁽¹³⁷⁾

وظهرت براعة ابن خلدون ومقدراته السياسية حينما انتقل إلى الأندلس عام 764هـ ، حيث ضمه سلطان غرناطة ابن الأحمر إلى عليّة أهل مجلسه ، وأوفده للقيام بمهمة سياسية دقيقة وهي - كما مر سابقاً - عقد صلح مع ملك قشتالة والتي أداها بنجاح . وفي الوقت نفسه بدت شخصية العالم الأديب كأروع ما تكون من خلال علاقته بأديب غرناطة ووزيرها ابن الخطيب ، بل وكان ابن الأحمر مولعاً بالإنتشاد لقتداءً بملوك المغرب - خاصة في مناسبات كالمولد ، فكان ابن خلدون ممن ينشدونه⁽¹³⁸⁾

ولعل من الشواهد على ما ذهبنا إليه من انشغال ابن خلدون بالسياسة والعلم معاً هو توليه لمنصب الحاجب عند مقدمه إلى بجاية عام 766هـ . وقيامه بالتدريس في جامع القصبة في الوقت نفسه وقد بيدّ ن ابن خلدون أن وظيفة الحاجب من الوظائف السلطانية، فهي تختص بمن يحجب السلطان عن العامة ، ويغلق بابه دونهم - وقد أكد ابن خلدون أهمية هذه الوظيفة في دول المغرب قائلًا في (التعريف) "ومعنى الحجابة في دولنا المغرب - الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد"⁽¹³⁹⁾ . ويبين أن هذا المنصب كان رفيعاً في الأندلس حتى أن السلطان اختص بذلك اللقب لشرفها، إذ يقول في (المقدمة) "ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها"⁽¹⁴⁰⁾

وقد أكد ابن خلدون في (التعريف)، أنه قد نجح في التوفيق بين تلك الوظيفة ذات الطابع السياسي وبين الخطابة والتدريس في جامع القصبة، مفرغاً في الأولى خبراته السياسية وفي الثانية حصيلته العلمية إذ يقول "كتب لي الأمير أبو عبد الله بخره عهداً بولاية الحجابة .. وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباوكة بابي، واستقللت بحمل ملكه

واستفردت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه وقدمني للخطابة بجامع القصبية وأنا مع ذلك، عاكف-بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة- إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبية لا أنفك عن ذلك" (141).

وقد قضى ابن خلدون في المغرب زمناً بين قبائل رياح المرهوية، فانتهى إلى نيله نفوذاً كبيراً عندها، وقد بينا أن السلاطين المتعاقبين قد أدركوا هذا النفوذ، لذا فقد كانوا يستعينون مراراً بآبى خلدون لاستمالتها. ورغم أن هذه المهمة تبدو في ظاهرها تكاليف سياسية، إلا أنها في الواقع قد أضافت إلى رصيده الكثير من معرفه عن البداوة والحضارة، وقيام الدول وزوالها.

وحتى في الفترة التي انقطع فيها ابن خلدون في قلعة بني سلامة للكتابة والتأليف، لم يكن فيها منقطعاً كلياً عن السياسة، فقد حمل معه كل تجاربه ورصيده السياسي وعكسه في مقدمته - كتابه الأول - ، فما كتبه في مقدمته عن العصبية ، وعن علاقة العصبية بالسلطة ، وقيام الدول وزوالها - على سبيل المثال - ما هي الا نظرية تبلورت وصيغت من خلال تجاربه السياسية . فالمقدمة عكست مقدرة ابن خلدون العلمية والفكرية بل والأدبية الرفيعة ، وفي الوقت نفسه عكست حسه السياسي فهي كما يقول زكريا بشير "عمل فكري وفكر سياسي امتاز بصدق الحاسة السياسية وعمق وغزارة الملكة العلمية الأكاديمية" (142)

وفي مرآة أخرى في مصر نجده يجلس للتدريس والفتيا والقضاء ، والفتيا والقضاء كما بين ابن خلدون - بالإضافة إلى الصلاة والجهاد والحسبة - من الوظائف الدينية الشرعية التي تتوج تحت الخلافة الكبرى (143) . والخليفة هو المسئول عن تعيين القائمين بهما يقول ابن خلدون " وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ، ورد الفتيا إلى من هو أهل لها... لأنها من مصالح المسلمين" (144)

وأما القضاء فقد بين ابن خلدون أن الخلفاء - لأهميته - كانوا يباشرونه بأنفسهم في صدر الإسلام ، وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه . ثم سلك الخلفاء من بعده مسلكه تخفيفاً على أنفسهم . وبعد تحول الخلافة إلى ملك صارت الخطط الدينية بعيدة عن السلطان لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه. (145)

إلى جانب توليه للقضاء والفتيا ، فقد اصطحب سلطان مصر ابن خلدون معه للقاء تيمور بعد استيلائه على حلب وتوجهه إليهمشق كما مرّ علينا - وهذا التكليف السياسي يدل على ثقة السلطان بمقدرات ابن خلدون السياسة ، على أن هذه التكاليف السياسية والوظائف الدينية لم تصرف ابن خلدون عن التدريس والتأليف فقد شرع - كما أسلفنا في إضافة فصول وأجزاء لتاريخه وللمقدمة والتعريف، كما قام بتتقيح ما كتب ، إلى جانب قيامه بالتدريس في الأزهر وبعض المدارس .

ليس ما سقناه من شواهد من قبيل الاستطرادات ، ولكننا حاولنا أن ندلل على تداخل نزعتي العلم والسياسة في شخصية ابن خلدون ، ولا سيما أن ذلك كان له أثره على مفاهيم ونظريات تضمنها مؤلفه التاريخي الذي اشتهر بمقدمته .

الخاتمة

مما سبق نخلص إلى أن حياة ابن خلدون كانت مليئة بالحوادث والتقلبات والمغامرات، والتي هي انعكاس للحياة العامة بدول المغرب العربي بمنتصف القرن الثامن الهجري. وقد ارتبط نشاط ابن خلدون السياسي بالنشاط العلمي طيلة حياته في شمال إفريقيا، فقد تقلد مناصب سياسية ووزارية وسلطانية ودبلوماسية على طول دول المغرب وعرضها، وفي الوقت نفسه قام بالتدريس في كبرى المساجد والمدارس في معظم بلدان شمال إفريقيا التي حلّ بها، مثل جامع القصبية في بجاية، وجامع القرويين في تونس، والجامع الأزهر في مصر.

وإن كان ابن خلدون قد تمتع بمزايا الرئاسة والحكم في جميع الدول المغربية وذاق محن الاعتقال والأسر إلا أنه مع ذلك كان يلتزم السلوى في التدريس والبحث والتأليف.

الهوامش

- (1) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نشر وتعليق محمد بن تاويت الطنجي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1951 . ص 1
- (2) المرجع السابق ، ص 1
- (3) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، 1979م . ج 7 ص 380
- (4) وردت في التعريف (كريت) . المرجع السابق . ج 7 ص 380 وهو تحريف واضح والصواب أنها كريب ، محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1953م . ص 16
- (5) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص 380 ، ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون . ص 3-4
- (6) يبتدئ عصر ملوك الطوائف بالأندلس بنهاية الخلافة الأموية ، وينتهي بغلبة يوسف بن تاشفين المرابطي عليهم واستيلائه على الأندلس . ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج 4 ص 156 .
- (7) المرجع السابق . ج 7 ص 381
- (8) المرجع السابق . ج 7 ص 381 ، ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون . ص 7
- (9) علي عبد الواحد وافي ، ابن خلدون منشئ علم الاجتماع ، مكتبة نهضة مصر بالجيزة ، القاهرة ، ص 12 ابن خلدون ، التعريف . ص 8
- (10) تبتدئ دولة الموحدون بالمغرب سنة 514 هـ على يد مهدي الموحدين محمد بن تومرت وتنتهي سنة 688 هـ . وامتد سلطانها إلى الأندلس من سنة 540 إلى 609 هـ تقريباً . ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون . ص 8
- (11) المرجع السابق . ص 8 وما بعدها ، وافي ، ابن خلدون منشئ علم الاجتماع . ص 12-13 .
- (12) تنسب الدولة الحفصية بإفريقية إلى أبي حفص ، وهو أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد الهنتاتي ، أول التايعين لمهدي الموحدين من بني قومه ، ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون . ص 9
- (13) كلمة إفريقية كانت تطلق قديماً على المغرب الأدنى الذي كان يشمل تونس وما إليها
- (14) مدينة الجزائر كانت قاعدة المغرب الأوسط ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون . ص 12
- (15) المرجع السابق . ص 8-14 ، عنان ابن خلدون حياته وتراثه الفكري . ص 17-18

- (16) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون .ص14-15
- (17) وافي ، ابن خلدون منشى علم الاجتماع .ص15
- (18) نقولا زيادة ، قمم من الفكر العربي الإسلامي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1987م- ص165 ، محمد طه الحاجري ، ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة ، دار النهضة العربية، بيروت ، 1980م . ص 12-16 ، زكريا بشير إمام ، جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون ،الدار السودانية للكتب ، الخرطوم ، الطبعة الأولى، 1985م .ص10
- (19) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون .ص15 وما بعدها
- (20) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون .ص15-22 ، إجازاتهم من الإجازة وهي شهادة مصطفى الشكعة ، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1992م .ص22
- (21) الأستاذ لتلميذه بأنه أتم دروسه بنجاح .عنان ، ابن خلدون حياته وراثته الفكري .ص19
- (22) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون .ج7 ص348
- (23) المرجع السابق . ج7 ص385-386
- (24) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون .ص20-22.
- (25) المرجع السابق .ص21-22 ، 33-41.
- (26) انتشر الطاعون الجارف - كما يسميه ابن خلدون - سنة 749هـ في معظم أنحاء العالم شرقيه وغريبه ، وطاف بالبلاد الإسلامية في سمرقند إلى المغرب ، وعصف كذلك بإيطاليا ومعظم البلاد الأوربية . وقد كان هذا الطاعون نكبة كبيرة وصفها ابن خلدون بأنها (طوت البساط بما فيه) عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة بن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، .ص32-33)
- (27) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص55 ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ج7 ص398.
- (28) على النقيض من القبائل العربية التي غادرت الجزيرة العربية لتفتح باسم الاسلام بعض الأقطار ، فان قبائل بنى هلال وبنى سليم ظلت فى الجزيرة العربية محافظة على طريقة عيشها ومتنقلة بين الحجاز ونجد، واشتهرت بقطع الطريق على الحجاج، وتسببت فى خلق متاعب كثيرة للعباسيين ، وقرر الخليفة الفاطمى المنتصر أن يلقي بنى هلال وسليم الى افريقيا لتأمين استقرار سلطانه وقال لهم: قد اعطيتمك المغرب ، فافتتحو أمصارها واستباحوها . وسارت قبائل دياب وزغبة وجميع بطون هلال الى افريقية كالجراد المنتشر لايمرون بشيء الا أتوا عليه ، وجرفوا بلاد البربر وقبائل زناتة البربرية، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج6ص40.
- (29) غاستون بوتول ،ابن خلدون فلسفته الاجتماعية ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1995م ، ص11

- (30) ابن خلدون ,مقدمة ابن خلدون .ص32- 33.
- (31) زينب محمود الخضيرى , فلسفة التاريخ عند ابن خلدون , دار التنوير للطباعة والنشر ,بيروت, الطبعة الثانية ,1985م .ص.18.
- (32) وافي ,ابن خلدون منشئ علم الاجتماع .ص.22
- (33) بوتول ,ابن خلدون .ص.12
- (34) محمد عبد الرحمن مرحبا, الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب , منشورات عويدات, بيروت , الطبعة الثانية ,1988م. ص488عنان ، ابن خلدون ص23.
- (35) ابن خلدون ,التعريف بابن خلدون .ص50-55
- (36) المرجع السابق .ص.55
- (37) عنان, ابن خلدون . ص24-25, مرحبا , الجامع فى تاريخ العلوم .ص486-488.
- (38) ابن خلدون , تاريخ ابن خلدون .ج7ص399.
- (39) بلد معروف فى الجزائر . ابن خلدون , التعريف .ص.57.
- (40) المرجع السابق .ص56-57.
- (41) ابن خلدون , التعريف ,ص58-59 , ابن خلدون ,تاريخ ابن خلدون .ج7ص400
- (42) ابن خلدون , تاريخ ابن خلدون .ج7ص400 , ابن خلدون , التعريف .ص.59.
- (43) ابن خلدون , التعريف .ص59-66
- (44) ابن خلدون , التعريف .ص66- 68 . ابن خلدون , تاريخ بن خلدون .ج7 ص403- 405
- (45) عنان , ابن خلدون .ص.31.
- (46) ابن خلدون , تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص405.
- (47) ابن خلدون ,التعريف .ص.70.
- (48) المرجع السابق. ص.7.
- (49) عنان ، ابن خلدون .ص 23.
- (50) ابن خلدون , تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص405 - 410 , ابن خلدون , التعريف . ص77- 79.
- (51) يعتبر ابن الخطيب من أعظم كتاب الاندلس وشعائرها فى القرن الثامن الهجرى ,وقد جمعت بينه وبين ابن خلدون مشابهاة عديدة , فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة, وكان كلاهما شخصية بارزة فى حوادث عصره وكان كلاهما وزيراً ومستبداً ومستشاراً لأمرء عصره , ومحرضاً لهم او عليهم . وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى كان يشغله ابن الخطيب فى الاندلس . وقد جمعت بينهما اواصر الصداقة والحب , وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس .

- (52) ابن خلدون ، التعريف . ص79
- (53) المرجع السابق . ص 84- 85 ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص 411 - 214
- (54) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج7ص 415
- (55) مصباح العاملي ، ابن خلدون وتفوق الفكر العربي على الفكر اليوناني باكتشافه حقائق الفلسفة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان ، مصراتة، الطبعة الاولى، 1988م . ص 276 - 277.
- (56) ابن خلدون ، التعريف . ص97- 98.
- (57) المرجع السابق . ص97
- (58) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون . ج7ص418
- (59) المرجع السابق . ج7ص 418- 419. ابن خلدون ، التعريف . ص98- 99.
- (60) المقصود بالعصبية هنا القوة والقهر . ولمزيد من التفصيل في معنى العصبية انظر، إيف لاکوست، العلامة ابن خلدون. ص125 و مابعدھا، محمد عبد الجابري، فكر ابن خلدون. ص250.
- (61) ابن خلدون، المقدمة. ص 139.
- (62) المرجع السابق . ص 154.
- (63) زينب ، فلسفة التاريخ ص 21.
- (64) عنان ، ابن خلدون . ص 26.
- (65) وافي ، ابن خلدون منشي علم الاجتماع . ص 49 .
- (66) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج 7 ص419، ابن خلدون ، التعريف . ص99-100.
- (67) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون. ج7ص419- 421.
- (68) ابن خلدون ، التعريف . ص130- 132.
- (69) المرجع السابق . ص 135-137
- (70) زكريا بشير ، جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون . ص 13 .
- (71) زينب الخضير ي ، فلسفة التاريخ . ص 21.
- (72) العاملي ، ابن خلدون وتفوق الفكر العربي على الفكر اليوناني . ص 281.
- (73) بوتول ، ابن خلدون. ص 14.
- (74) أومليل، الخطاب التاريخي . ص136. محمد الطالبي وآخرون، ابن خلدون والفكر العربي المعاصر . ص40.
- (75) ناصيف نصّار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون. ص128.
- (76) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص 440-443.
- (77) المرجع السابق ، ج 7 ص 443، ابن خلدون ، التعريف . ص 218 - 224.

- (78) ابن خلدون ، التعريف . ص 225.
- (79) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص 443-444.
- (80) ابن خلدون ، التعريف . ص 227.
- (81) قلعة بني سلامة ، تقع في ولاية وهران بالجزائر . المرجع السابق. ص 228.
- (82) ابن خلدون ، التعريف . ص 228-229 ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون. ج 7 ص 344-345.
- (83) المرجع السابق . ص 230.
- (84) عرفت هذه النسخة فيما بعد بالنسخة التونسية وأكملها ابن خلدون فيما بعد ، مضيفاً إليها أقسام أخرى من تاريخ الدول الإسلامية في المشرق وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية .
- (85) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص 446
- (86) ابن خلدون ، التعريف . ص 244.
- (87) المرجع السابق . ص 244-245 ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص 446.
- (88) ابن خلدون ، التعريف . ص 246 - 247 .
- (89) كان المجتمع القاهري يعرف الكثير عن شخصية ابن خلدون وسيرته ، وكان ذكر مؤلفه الضخم ولا سيما مقدمته الشهيرة قد سبقه ، وذاعت نسخه الأولى قبل ذلك بقليل في مصر وغيرها من بلدان المشرق . عنان ، ابن خلدون . ص 70 .
- (90) ابن خلدون ، التعريف . ص 248
- (91) المرجع السابق . ص 248 .
- (92) ابن خلدون ، التعريف ، ص 254 ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج 7 ص 446 وسجل المقرئ هذا الحادث قائلاً (استدعى شيخنا ابوزيد عبد الرحمن بن خلدون ، إلى القلعة ، وفوض إليه السلطان قضاء المالكية ، وخلع عليه ، ولقب "ولي الدين" واستقر قاضي القضاة عوضاً عن جمال الدين عبد الرحمن ... وقرئ تقليده في المدرسة الصالحية بين القصرين على العادة ...) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون . ص 254 . والمدرسة الصالحية نسبة إلى بانيها الملك الصالح نجم الدين ايوب . المرجع السابق . ص 254
- (93) ابن خلدون ، التعريف . ص 254 - 255 .
- (94) المرجع السابق . ص 254 - 255 .
- (95) عنان ، ابن خلدون . ص 77 .
- (96) عنان ، ابن خلدون . ص 77 ، وافي ، ابن خلدون منشئ علم الاجتماع . ص 59 .
- (97) عنان ، ابن خلدون . ص 77 .

- (98) ابن خلدون ، التعريف . ص 256 - 257
- (99) المرجع السابق . ص 285 - 286 .
- (100) صلغتمش لعلها كانت تنطق باللام فسجلها ابن خلدون كما سمعها . وصوابها صدغتمش ، وتقع هذه المدرسة بجوار جامع احمد بن طولون، وتتسب الي بانيتها الأمير سيف الدين صدغتمش الناصري أمير رأس النوبة - ابن خلدون ، التعريف . ص 293
- (101) المرجع السابق . ص 311
- (102) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع في طريق باب النصر على مقربة منه وقد بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس ثامن ملوك الترك . ابن خلدون ، التعريف . ص 312.
- (103) الناصري هو يبلغا بن عبد الله الناصري وكان نائب السلطنة من قبل، وكان الظاهر برفوق من جملة أمرائه وتابعيه، لكنه استطاع في فتنة سابقة (784هـ) أن يظفر بالعرش دونه، ثم سنحت فرصة الخروج والثورة ليبلغا ، فدخل القاهرة ، وقبض على برفوق وأرسله سجيناً إلى دمشق سنة 791هـ ، ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش ، انتهت بالقبض على الناصري واسترداد برفوق للعرش سنة 792هـ . ابن خلدون ، التعريف . ص 314-335
- (104) المرجع السابق . ص 314 - 335
- (105) ابن خلدون ، التعريف . ص 347 .
- (106) المرجع السابق . ص 350.
- (107) ابن خلدون ، التعريف . ص 366 - 368.
- (108) الشكعة ، الأسس الإسلامية . ص 25.
- (109) عنان ، ابن خلدون ، ص 91، وافي، ابن خلدون منشى علم الاجتماع . ص 65.
- (110) عبد الرحمن بدوي ، مؤلفات ابن خلدون ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، 1962م . ص 7 . ابن خلدون ، التعريف . ص 383 - 384 . ويصل ابن خلدون في تدوين سيرته الذاتية في كتاب (التعريف) حتى عزله من القضاء للمرة الخامسة في ذى القعدة 807هـ . اى ما قبل وفاته بعدة أشهر فقط . وقد نقل السخاوى في (الضوء اللامع) توليه للقضاء للمرة السادسة ووفاته بعد بضعة أسابيع ودفنه . عنان ، ابن خلدون . ص 95.
- (111) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون . ص 6-7 .
- (112) وافي ، عبد الرحمن بن خلدون ، سلسلة اعلام العرب - مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، القاهرة ، ط1 ، 1962م . ص 123-125
- (113) الشكعة ، الاسس الاسلامية . ص 32.
- (114) المرجع السابق . ص 33.

- (115) احمد بن علي بن حجر العسقلاني ، رفع الاصر عن قضاة مصر ، (مخطوط) نسخة دار الكتاب ، ورقة 160 نقلاً عن بدوي ، مؤلفات ابن خلدون . ص 286 .
- (116) المرجع السابق . نقلاً عن عنان ، ابن خلدون . ص 99 .
- (117) المرجع السابق . ص - 99-100 . ومما نقل ابن حجر في ذم ابن خلدون قول الريراكي . - أحد الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون - "انه عري عن العلوم الشرعية" بل وينقل ابن حجر بعض المطاعن الشخصية والاخلاقية التي قيلت في حق المؤرخ . المرجع السابق . ص 100-101 .
- (118) ابن حجر ، رفع الإصر ، ورقة 160 نقلاً عن عنان ، ابن خلدون ، ص 106 ، وقد عارض ابن حجر المقرئ في مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير "البلاغة والتلاعب بالكلام علي الطريقة الجاحظية" .
- (119) أبو المحاسن بن تغري بردي ، المنهل الصافي ، مخطوط . ج2 ورقة 30 نقلاً عن عنان ، ابن خلدون . ص 108 .
- (120) ابن حجر ، رفع الاصر ، نقلاً عن المرجع السابق . ص 200-201 .
- (121) عنان ، ابن خلدون ، ص 101 - 102، وقد نقل عنان صورة لطلب الإجازة الذي كتبه ابن حجر بخطه وتوقيعه ، وفيه يطلب إلى ابن خلدون أن يصدر له ولعدد من زملائه هذه الإجازة وفي جانبها نص الاجازة التي اصدها ابن خلدون بخطه وتوقيعه سنة 797هـ ، لابن حجر وزملائه . وهي صورة منقولة عن مصنف ابن حجر "التذكرة الجديدة" المجلد السادس . وهي مخطوطة في مكتبة ايا صوفيا باستانبول . عنان ، ابن خلدون . ص 102 - 105 .
- (122) العاملي ، ابن خلدون وتفوق الفكر العربي . ص 269 .
- (123) زكريا بشير ، جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون ، ص 17 - 19 ، زينب ، فلسفة التاريخ . ص 27 .
- (124) يقول زكريا بشير "كانت هاتان الرغبتان حب السلطة والرغبة في التزود بالمعارف والعلوم تمثلان أكبر عاملين للشد والجذب في حياته" المرجع السابق - ص 9 . وتقول زينب الخضيرى " كان اذن الي جانب اشتغاله بالسياسة يشتغل بالعلم ، وهكذا كان ابن خلدون دائماً يشغل نفسه بهذين المجالين معاً فيشغلانه" . زينب ، فلسفة التاريخ . ص 20 .
- (125) المرجع السابق . ص 27 .
- (126) زكريا بشير ، جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون . ص 17 - 18 .
- (127) نلاحظ هنا أن الباحث لم يقصر فترة التأليف والكتابة على إقامة ابن خلدون في قلعة بني سلامة بل أضاف إليها الأربعة أعوام التي قضاها ابن خلدون في تونس ، اذ يقول عن هذه المرحلة "وهي

- المرحلة التي قضى شطراً منها معتكفاً في قلعة بني سلامة بالجزائر ، وشطراً منها بتونس إلى أن غادرها الي مصر " المرجع السابق . ص 18 - 19 .
- (128) المرجع السابق . ص 18- 19 .
- (129) يقسم ابن خلدون الوظائف داخل الدولة - وهو تقسيم معروف - إلى نوعين : وظائف السيف ووظائف القلم ، فالأولى تتصل بالحرب والشرطة والبريد وولاية الثغور ، والثانية تنفرع إلى قلم الرسائل وقلم الصكوك والاقطاعات وقلم المحاسبات والجباية والعطاء وديوان الجيش ، وهذه الوظائف تندرج تحت الخلافة لاحتمال منصبها على الدين والدنيا . ابن خلدون ، المقدمة . ص 35
- (130) المرجع السابق . ص 246 - 247 .
- (131) ابن خلدون ، المقدمة . ص 247 .
- (132) المرجع السابق . ص 248 - 249 .
- (133) ابن خلدون ، التعريف . ص 58 - 59 .
- (134) المرجع السابق . ص 70 .
- (135) المرجع السابق . ص 77 ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج7 ص 415 .
- (136) ابن خلدون ، المقدمة . ص 220 - 222 .
- (137) المرجع السابق . ص 222 .
- (138) ابن خلدون ، التعريف . ص 84 - 85 ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون . ج7 ص 412 - 415 .
- (139) ابن خلدون ، التعريف . ص 97 .
- (140) ابن خلدون ، المقدمة . ص 219 .
- (141) ابن خلدون ، التعريف . ص 98 .
- (142) زكريا بشير ، جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون . ص 14
- (143) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون . ص 219 .
- (144) المرجع السابق . ص 220 .
- (145) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون . ص 220 - 221 .

قائمة المراجع

1. إمام : زكريا بشير إمام جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون ، الدار السودانية للكتب ، الخرطوم ، الطبعة الاولى ، 1985م .
2. أوملي:علي أولملي ، الخطاب التاريخي، دارالتنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة ، 1985م.
3. بدوي : عبد الرحمن بدوي ، مؤلفات ابن خلدون ، المركز القومي للبحوث القاهرة ، 1962م .
4. بوتول : غاستون بوتول ، ابن خلدون فلسفته الاجتماعية ، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، 1955م .
5. الجابري : محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون العصبية والدولة ، دار الطليعة ، بيروت ، 1982م.
6. الحاجري : محمد طه الحاجري ، ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة دار النهضة العربية ، بيروت ، 1980م .
7. الخضيرى : زينب محمد الخضيرى ، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ، الطبعة الثانية، 1985م .
8. ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر بيروت ، 1979م
ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نشر وتعليق محمد بن تاويت الطنجي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ، 1951م .
9. ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .
10. زيادة : نقولا زيادة ، قمم من الفكر العربي الاسلامي ، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت 1987م .
11. الشكعة : مصطفى الشكعة : الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1992م .
12. الطالبي : محمد الطالبي وآخرون ، ابن خلدون والفكر العربي المعاصر ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1982م.
13. العاملي : مصباح العاملي : ابن خلدون وتفوق الفكر العربي على الفكر اليوناني باكتشافه حقائق الفلسفة ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان مصراتة ، الطبعة الاولى ، 1988م.
14. عنان : محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة، الطبعة الثانية ، 1953م .
15. نصّار ناصيف نصّار ، الفكر الواقعي عند ابن خلدون ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1985م.
16. مرحبا : محمد عبد الرحمن مرحبا ، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب منشورات عويدات ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1988م .

17. لاكوست : إيف لاكوست ، العلامة ابن خلدون ، ترجمة: ميشال سليمان ، دار ابن خلدون ، بيروت ، بدون تاريخ.
18. وافي : علي عبد الواحد وافي ، أ- ابن خلدون منشئ علم الاجتماع ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، القاهرة .
19. ب- : عبد الرحمن بن خلدون - سلسلة أعلام العرب ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1962م .